

"الأيديولوجيا" في الفكر العربي المعاصر ومُركّب الأزمات والحلول

سعيد شبار

إطار نظري للبحث

للبحث في موضوع "الأيديولوجيا" مبررات عدة، خاصة إذا تعلق الأمر بمجال تداولي هو الفكر العربي والإسلامي المعاصر، الذي عرف اجتياحا منقطع النظير من المفاهيم والمصطلحات محملة بدلالاتها ومضامينها ذات الخصوصية الثقافية الغربية. ويكون الأمر أكثر خطورة إذا علمنا -ومن خلال التتبع- أن نشاط المروجين لهذا النمط من المفاهيم والمصطلحات هو أكثر بكثير من نشاط الداعين إلى النهضة الذاتية بالمقومات الفكرية الذاتية أولا.

وإذا كانت العقلانية والعلمانية، والديمقراطية، والليبرالية، والقومية، والبنوية، والحدائث وما بعدها، والعولمة... إلخ، مفاهيم تحمل نزعات "فكرية" تعكس تمركزاً حاداً حول مضامينها الثقافية الغربية المشروطة بسياقاتها التاريخية وتحولاتها الاجتماعية لدى دعاة؛ فإنها، عملياً، استطاعت أن تتحول إلى تيارات فكرية وسياسية منظمة، كان أغلبها ولا يزال عنصر تجزئة وتفتيت في الأمة، تستند في أطروحاتها إلى هذا الذي تسميه "أيديولوجيا"، والذي يشكل مرجعيتها النظرية والتصورية. وكل يحدد "أيديولوجيته" حسب مقاساته وطموحاته.

كان هذا هو الدافع إلى البحث في "الأيديولوجية" مصطلحاً ومفهوماً، وفي آثارها على الساحة الفكرية العربية والإسلامية للوقوف على بعض أضرارها وسلباتها وذلك بالاستناد إلى أطروحات مروجيها ومستعمليها عفواً وقصداً. هذا مع ما أمكن توجيهه من ملاحظات وتقويمات نقدية في هذا الاتجاه.

فكان المبحث الأول خاصاً بالتتبع التاريخي لدلالات المصطلح والمفهوم الفكرية والسياسية والاجتماعية في سياقها الغربي، مجالها التداولي الأول، حيث نشأت وتأسست. وكان المبحث الثاني خاصاً بتداول المفهوم في المجال الثقافي العربي والإسلامي الذي انتقلت إليه واستعملات هذه المفهوم.

في تعريف المصطلح والمفهوم

لو رجعنا إلى معاجم وموسوعات أجنبية تعرّف اللفظ، لوجدنا أنه لفظ غير مستقر على مفهوم محدد واستعمال معين، فهو لفظ محتمل لمفاهيم لا حصر لها. إلا أن الوصف القائم باللفظ في غالب استعماله، وصف سلمي قدحي، يعبر عن عدم الوضوح والبيان؛ فهو وعي "كاذب، زائف، وهم، حلم..". حتى إنه ليصحّ عليه لغة ما حدّدته معاجم اللغة العربية، بأنه "سير وتنقل في الظلام". يحمل اللفظ مع كل اتجاه فكري أو "طبقة"، بل مع كل شخص أو "رغبة"، معنى ولونا تتجاذبه مصالح وطموحات. كل ذلك في سيرونة تاريخية مليئة بأشكال معقدة من التطورات الفكرية، والتحويلات السياسية والاجتماعية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر على الخصوص "عصر فلسفة الأنوار".

هذا مع أن مصطلح "الأيدولوجيا"، لم يبدأ كمصطلح للتهمة، كما أنه في الاستعمال المتداول ينأى بعيداً عن أية مضامين أو تضمينات تفيد معنى التعريض أو الإدانة. فالمصطلح يعادل أو يقابل أية مجموعة مترابطة من المعتقدات السياسية المتسقة ذاتياً. ولكن وفي منتصف الطريق، ومع ما خلعه كارل ماركس على المصطلح من استعمال، دل مصطلح "أيدولوجيا" على وعي زائف بالحقائق الاجتماعية والاقتصادية، ووهم أو ضلال

هذا عند من يريد أن يعرّبه تعريباً تاماً، وينخله في قالب من قوالب الصرف العربي، فاقترح كلمة "أولوجة" على وزن "أفعولة". جمع أداليج وألولوجات. وأدلج إدلاج، ودلج تدليجا. وألوجي جمع أدلوجيون.. عيد الله العروبي: مفهوم الأيدولوجيا (الألوجة)، المركز الثقافي العربي، البيضاء، ط 3/1984. ومعلوم أن هذا المصطلح البديل، أو قريباً منه، حسب اشتقاقه من مادة (دلج)، له معاني أصيلة في اللغة العربية. نجد في المعاجم: "الكجة سير السحر، والدلجة سير الليل كله.. وقيل الكلج: الليل كله من أوله إلى آخره.. وعن ابن السكيت: أدلج القوم، إذا ساروا الليل كله فهم مدلجون. وأدلجوا إذا ساروا في آخر الليل.. والعرب تسمي القنفذ مدلجاً، لأنه يدرج بالليل ويتردد فيه..". انظر: الجوهري: الصحاح. ج1/ ص 315، ابن منظور: اللسان، ج2/ ص 272-274، الزبيدي: التاج، ج 2/ ص 43-44، ابن دريد: الجوهرة، ج2/ ص 68.

جمعي يتقاسم الوقوع فيه أفراد طبقة اجتماعية معينة... وهكذا لم يصبح المصطلح إهانة وإدانة فحسب، بل مصطلحاً ضخمت فيه الإهانة بفعل نظرية مثيرة مهيجة لم يقر بها القرار بعد على مستقر فلسفي¹.

فقد "أبدعت كلمة "أيدولوجيا" من طرف دستوت دوتراسي (Destott de Tracy)، أواخر القرن الثامن عشر، وكان يهدف إلى تعيين علم الظواهر العقلية، الذي ارتأى أن نشوءه أصبح لازماً إلى جانب الفلسفة المادية عند دولباخ (D'holbach) وهلفيتيوس (Helvétius) والفلسفة الحسية عند كونديلاك (Condillac)..² فهي "علم موضوعه دراسة الأفكار (آثار الوعي بالمعنى العام)، خصائصها وقوانينها وعلاقاتها بالرموز التي تمثلها وخاصة مصادرها وأصولها" و"الأيدولوجيون هم جماعة فلسفية وسياسية، أهم ممثليها دستوت دوتراسي، وكبانيس (Cabanis)، وفولني (Volney)، وكرات (Carat)، ودونو (Daunou). يقول دوتراسي بـ "أيدولوجي" Idéologue يبدو أن كلمة "أيدولوجي" Idéologue أبدعت ضمن جو يطبعه الاستخفاف بالقيم... ، بالمعنى القدحي: تحليل أو نقاش أجوف بأفكار مجردة لا تمت إلى الواقع بصلة.. مذهب يلهم حكومة أو حزباً.. ، "فكر نظري يعتقد أنه يتطور مجرداً عن معطياته الخاصة، لكن في الواقع هو تعبير عن وقائع اجتماعية خاصة الاقتصادية منها، والتي لم يعها من قام بها أو على الأقل لا يدرك أنها تحدد فكره. وهو معنى متداول في الفكر الماركسي بكثرة"، وكان ماركس يسمى "أيدولوجي" (في مقابل الوقائع الاقتصادية)، "ما هو تمثل أو اعتقاد، نظام فلسفي أو ديني"³.

¹ دافيد، برايبروك. (Braybrooke, David) في دائرة معارف الفلسفة *Encyclopedia of Philosophy* مج 4 / ص 124-127. نقلاً عن أسامة عيد الحليم زكي: مفهوم الأيدولوجيا فلسفياً وسياسياً حيث قدم الترجمة الكاملة للمفهوم عند برايبروك في الدائرة. مجلة الفكر العربي، س 13 (2)، ع 68 أبريل، يونيو 1992، ص 28 وما بعدها.

² Boudon, R. Borricaud, F: *Dictionnaire critique de la sociologie*. 3 éme edition, mise à jour, 1990. October, Press universitaire de France. P: 295.

³ La lande, André: *Vocabulaire technique et critique de la philosophie* - Press universitaire de France. 16ème edition. 1988. pp: 458-459.

وانظر أيضاً: مراد وهبة، يوسف كرم: المعجم الفلسفي - ط 2، 1971 (أيدولوجيا).

الأيديولوجيا أيضا "نظام (له منطقته ودقته الخاصين) من التمثيلات (صور، أساطير، أفكار أو مفاهيم حسب الحالات). يتمتع بوجود ذي دور تاريخي داخل أي مجتمع".⁴، و"يجدر بنا ملاحظة غموض جوهرى في استعمال كلمة "أيديولوجيا"، فهي تستعمل بمعنى محايد، كي لا نقول تقريضي، وتستعمل أيضا بمعنى نقدي (قدحي). يشير ريمون آرون إلى التذبذبات في الاستخدام العادي بين التوظيف القدحي، النقدي أو السجالي - الأيديولوجيا كفكرة زائفة تبرر المصالح والطموحات - والتوظيف الحيادي، وتحديد موقف دقيق بشكل أو بآخر تجاه الواقع الاجتماعي أو السياسي، والتأويل المنظم في حدود ما، لما هو مرغوب. بشكل عام كل خطاب فلسفي يسمى أيديولوجي. هنا تصبح الأيديولوجيا تقريضية مدحية وليس قدحية".⁵

ونعود مرة أخرى إلى مبدع الكلمة الأول دستوت دو تراسي، إذ يقول: "في اللحظة التي صاغ فيها.. عام 1706 الكلمة الفرنسية Idéologie، كان لديه (ولدى) رفاقه ما يدعوههم إلى الأمل في أن ما أنشأوه من "علم للأفكار" كان خليقا بأن يؤدي إلى إصلاحات في المؤسسة الاجتماعية بدءا بعمل إصلاح جذري شامل في قطاع المدارس بفرنسا..، ولفترة من الوقت تحقق لجماعة الأيديولوجيين وضع رئيسي فاعل في مجال صنع وتشكيل السياسة بين دوائر الصف الثاني من صفوف المعهد القومي Institute National ولسوء الحظ كان مقدراً عليهم الاصطدام بأهداف نابوليون بوناپارت ونواياه الخفية... [حيث] شرع نابوليون في العمل على إلغاء الجماعة والقضاء عليها، وذلك أثناء العمل على إعادة تنظيم المعهد (1802-1803) فأصدر أوامره باستبعاد عناصر الجماعة بوصفهم أناسا حالمين مغرقين في الخيال بعيدين عن الواقع، وعمل على اضطهادهم والسخرية منهم بمرارة مطلقا عليهم اسم "أصحاب النظريات الواهمة" Idéologues".⁶

4

Gabel Joseph: Idéologie. In (*Encyclopoedia universalis*). Vol 11. Editeur à Paris. S.A. 1990. p: 903.

5

Ibid p: 902.

6

نقلا عن أسامة عبد الحميد زكي، ص 29.

-Boudon, R. Borricaud, F: *Dictionnaire critique de la sociologie*. P: 295.

هذه تعريفات مختلفة، قد لا يبدو بينها من الانسجام التام ما يكفي، ولهذا مبرره في تضارب أو توافق التعريفات نفسها. وعلى كل فهي تراوح بين تقرير الوصف القدحي، التعريضي، الزائف.. للأيدولوجيا، وبين محاولات نفي هذه الأوصاف عنها، ولو في نشأتها الأولى على الأقل. لكن أصحاب هذا الاتجاه ينتهون هم أيضا إلى تقرير تلك الأوصاف وتبنيها. فالمصطلح لم يعمر في جو "الصفاء أو النقاء" المفهومي إلا قليلاً.

في خطوة تالية من التعريف، سنحاول الوقوف على تطورات المصطلح حسب التيارات الفكرية أو "الطبقات الاجتماعية" والمعاني التي كان يحملها مع كل اتجاه، وفي كل مرحلة. ولعل أول محطة مهمة ومؤثرة في المصطلح بشكل قوي، هي مع كارل ماركس، الذي اعتبره البعض من "أعطى لكلمة أيدولوجية الأهمية التي تكتسيها اليوم في كل ميادين البحث"⁷، وأنه "هو المفكر الذي أحيأ -بظهور كتابه "الأيدولوجيا الألمانية"- استخدام هذا التعبير الذي امتد استخدامه إلى وقتنا هذا"⁸. ومع تبني ماركس "المنحى النابوليوني في استعمال مصطلح "الأيدولوجيا" بما في ذلك من تلميحات الازدراء والاستخفاف"⁹، فقد أصبح مفهوم الأيدولوجيا -معه- يعني "الوعي الزائف" الذي يتحكم في إنتاجه الموقع الطبقي للأطراف الاجتماعية. فحقيقة العلاقات الاجتماعية تظهر لهم مشوهة بسبب مصالحهم، وبصفة عامة بسبب وضعهم داخل نظام الإنتاج"¹⁰. و"طبقا لما يقول به ماركس، فإن كل أيدولوجيا تحتوي على معتقدات توجه سلوك الآخذين بها، وأن كل طبقة اجتماعية معتنقة لأيدولوجيا من الأيدولوجيات، إنما تفعل ذلك لأن الأيدولوجيا التي تعتنقها تناسب أو تلائم منظومة معينة، وإن تكن مؤقتة، من النظم الاقتصادية"¹¹. وقد

⁷ العروي، عبد الله. مرجع سابق. ص 29.

⁸ مختار، علي. إشكالية العلاقة بين الأيدولوجيا والعلوم الاجتماعية، في ندوة: إشكالية العلوم الاجتماعية في الوطن العربي، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجناائية، ط 1 / 1984، دار التنوير، ص 131.

⁹

Braybrooke, D. (*Encyclopedia of Philosophy*).

نقلا عن أسامة عبد الحليم زكي، ص 29.

¹⁰

Boudon, R. Borricaud, F. Opcit, P 295.

¹¹

Braybrooke, D. Opcit.

استخدم ماركس الأيديولوجيا "في أغلب الأحيان كوصف، فهو يتحدث عن: الأيديولوجيا الألمانية، أو أيديولوجيا الجمهور، أو الموقف الأيديولوجي، أو الأيديولوجيا البرجوازية ... ولكنه لم يحدد أو يقدم تعريفاً للأيديولوجيا.."¹². "ومنذ ذلك الحين، فإن من يستخدم تعبير الأيديولوجيا من المفكرين يحدد له مفهوماً خاصاً به"¹³. وبالنسبة لماركس فـ "الأيديولوجيا هي مكونات البناء الفوقي.."، هي "الوعي الزائف الناتج من التكوين الطبقي للمجتمع، والذي يؤدي إلى ستر التناقضات الطبقيّة وبالتالي يساعد على إمكانية استمرار وضع الاستغلال..¹⁴".

إن الماركسية وهي تنتقد الأيديولوجيا البرجوازية، والمثالية الألمانية.. وتبني هموم الطبقة البروليتارية والشغيلة، وتقدم نفسها في ذلك كله كـ "علم"، لم تسلم بدورها من النقد وبنفس السلاح نفسه، خاصة من طرف الاجتماعيين الألمان الذي ذهبوا إلى أن "الماركسية تقرر أن الأيديولوجيات كلها طبقية، ولكنها لا تطلق هذا الحكم على ذاتها، فإنها تدعي أن البروليتارية طبقة كونية، بمعنى أنها لا تمثل طبقة جديدة مثل الطبقات السابقة، بل تمثل انحلال كل الطبقات فيها. إلا أن الحكم ميتافيزيقي، لأن الواقع المشاهد هو أن الشغلين يمثلون طبقة بجانب الطبقات الأخرى، والدليل على ذلك أن الأحزاب الاشتراكية الماركسية لا تنفك تدعو العمال إلى مستوى الوعي الطبقي الصحيح، وتعني الدعوة أن الطبقة الكونية مثل أعلى وليس واقعا"¹⁵. فـ "الماركسية إذن تخدم مصالح الطبقة الشغيلة، فهي أدلوجتها كما كانت الليبرالية أدلوجة الطبقة الوسطى، والمسيحية أدلوجة الإقطاع في القرون الوسطى..¹⁶".

وتستعيد الأيدولوجيا مغ لينين، وهذه محطة أخرى مهمة في تطور المفهوم والمصطلح، معنى إيجابيا يتعد عن الاستعمال الماركسي السلي لها. "فالأيديولوجيات [عند لينين] تُعدُّ

عن أسامة عبد الحليم زكي (سابق) ص 31 وأيضا 32، وانظر أيضا: العروي مفهوم الأيديولوجيا، ص 30-31. صلاح قنصوة: المتقف المصري إزاء المشكلة الزائفة للهوية، مجلة الاجتهاد، ع 10-11، ص 3 / 1411-1991، ص 106-107.

¹² مختار، علي. إشكالية العلاقة بين الأيديولوجيا والعلوم الاجتماعية، مرجع سابق، ص 131.

¹³ المرجع السابق، ص 131-132.

¹⁴ المرجع السابق، ص 133.

¹⁵ العروي، عبد الله. مفهوم الأيديولوجيا، ص 44.

¹⁶ المرجع السابق، ص 45.

جزءاً من مجموعة متناقضات الصراع الطبقي..¹⁷ "ففي الوقت الذي أعطاهما فيه ماركس معنى معرفياً سلبياً، فإن لينين اعتبر الأيديولوجيا هي مجموع أشكال المعرفة والنظريات التي تنتجها طبقة معينة للتعبير عن مصالحها. وبالتالي، فكما أن هناك أيديولوجيا برجوازية، فإن هناك أيضاً أيديولوجيا بروليتارية، وبذلك ارتبطت الأيديولوجيا بالطبقة بصرف النظر عن تقييمها المعرفي... وأصبح من الممكن التحدث عن أيديولوجيا علمية، وأخرى غير علمية، بعد أن كان العلم نقيض الأيديولوجيا عند ماركس"¹⁸. شرع لينين "ابتداءً من سنة 1900 في استعمال كلمة "نحن الأيديولوجيين"، وبالتالي لم تبق "الأيديولوجيا في فكر الآخر فكر الخصم، بل هي فكرنا نحن أيضاً. وهذا ما سيخرج بها من إطار الصراع السياسي إلى مستوى التحليل السوسيولوجي"¹⁹. "جمع لينين تحت هذا الاسم تيارات فكرية متناقضة، فراه مثلاً يعرف الاشتراكية بأنها "أيديولوجيا نضال البروليتاريا الطبقي" مع العلم أن ماركس وإنجلز لم يتكلما إطلاقاً عن "أيديولوجيا اشتراكية". وراه يتكلم عن "أيديولوجيا البرجوازية المناهضة للثورة"، وزيادة على ذلك يستخدم مصطلح النظرية حيث كان ينبغي أن يستخدم مصطلح الأيديولوجيا بالمعنى الماركسي. فيتحدث عن "نظرية الشعبين"، و"نظرية الفوضويين". لقد وحد لينين بين مصطلح النظرية ومصطلح الأيديولوجيا"²⁰. و"هذا الاستعمال المتباين من قبل ماركس ولينين هو أحد أهم أسباب الخلاف في الأوساط الماركسية حول تحديد مفهوم الأيديولوجيا، وحول مدى انطباقه أو عدم انطباقه على الماركسية"²¹.

هناك العديد من الرموز الفكرية، في الفكر الماركسي خصوصاً ممن أعطوا للأيديولوجيا مفاهيم ومعان متعددة، نذكر منهم وبسرعة الماركسي المجري لوكاتش "الذي أصدر عام 1922 كتابه الشهير "التاريخ والوعي الطبقي"، حيث يرى أن الأيديولوجيا هي الوعي الطبقي، وأن الوعي الطبقي نتاج البناء الفوقي ومسار له، وبالتالي فإن لكل

17

Boudon, R. Borricaud, F. Op cit, p 295.

18 مختار، علي. إشكالية العلاقة بين الأيديولوجيا والعلوم الاجتماعية. مرجع سابق ص 133-134.

19 سبيلا، محمد. الأيديولوجيا نحو نظرة تكاملية، المركز الثقافي العربي، ط 1/1992، ص 42.

20 الخطيب، منير. مفهوم الأيديولوجيا في الفكر العربي المعاصر، مجلة الوحدة، ع 75، ص 7 / 1411-1990، ص 113.

21 المرجع السابق، ص 114.

طبقة أيديولوجيا. وهو في هذا ينتمي إلى خط لينين إلا أنه أعطى للوعي الطبقي أو الأيديولوجيا دوراً في التأثير على القاعدة الاقتصادية، أي رفض اعتبارها نتاجاً جانبياً غير مؤثر في القاعدة...، ويرى أن الوعي الحقيقي غير الوعي المحتمل، وأنه هو الذي يعبر عن الدور التاريخي للطبقة... [ف] مفهوم الأيديولوجيا عنده يحتوي على أصول ماركسية وأخرى لينينية²²، هي باختصار "وعي وإدراك الملموس، سواء كان ذلك في ميدان الفلسفة أو العلم أو المنطق"²³.

وعند أنطونيو غرامشي في نهاية العشرينات من القرن، كانت الأيديولوجيا "تساوي الفلسفة وتساوي النظرة الكونية الشاملة، وتساوي السياسة، أي يحمل الأفكار التي تحرك مجتمعا ما، أو تكون أساساً لوجوده وحركته. وهي لا تشمل فقط النظريات والأفكار العامة، بل تشمل كذلك كل أنساق القيم والمعتقدات (...). لقد أعطى غرامشي الأيديولوجيا والبناء الفوقي استقلالية وقدرة على التأثير على البناء التحتي، واعتبر الأيديولوجيا بناء مكوناً من العديد من العناصر المتناسقة المشدودة بعضها إلى بعض في وحدة بنائية واحدة تتمحور حول عنصر أيديولوجي طبقي"²⁴.

والأيديولوجيا عند المفكر الفرنسي التوسير في ستينات هذا القرن لا تعبر عن العلاقة بين الناس وظروف وجودهم، ولكنها تعبر عن الطريقة التي يعيشون بها العلاقة بينهم وبين ظروف وجودهم. وبالتالي لا يشترط أن يكون التعبير صحيحاً أو زائفاً أو مشوهاً. ولكنه خليط من كل ذلك. وأن لها وجوداً مادياً وتتجسد في مؤسسات وأجهزة أسمائها أجهزة الدولة الأيديولوجية..²⁵.

ويلخص التوسير تحليله بهذه العبارة: "إن مفهوم الذات أساس كل أدلوجة، بقدر ما الوظيفة تحدد الأدلوجة، هي تحويل "للأفراد إلى ذوات"²⁶. يرى التوسير "أن العلم نقيض الأيديولوجيا، وأن المعرفة تبدأ بالأيديولوجيا، ويتعين تخليصها منها وإحلال العلم محل

22 مختار، علي. إشكالية العلاقة. مرجع سابق ص 135.

23 العروي، عبد الله. مفهوم الأيديولوجيا، مرجع سابق ص 90-91.

24 مختار، علي. إشكالية العلاقة، مرجع سابق، ص 136-137، وأيضا محمد نبيلا: الأيديولوجيا نحو نظرة متكاملة، ص 43.

25 المرجع السابق، ص 138.

26 العروي، عبد الله. مفهوم الأيديولوجيا. مرجع سابق ص 95-96.

الأيدولوجيا، وهو ما يسميه بالانقطاع المعرفي. وهو في هذا يختلف مع كل من ماركس وگرامشي. فمن زاوية ماركس: لا يحل العلم محل الأيدولوجيا، ولكنه يكشفها فقط، وإن تغير الواقع هو الذي يقضي عليها. ومن زاوية غرامشي، فإن فكرة الانقطاع المعرفي تتناقض مع فكرة التحليل والتركيب السابق الإشارة إليها في تكوين الأيدولوجيا..²⁷

محطة أخرى وأخيرة مع كارل مانهايم في النصف الأول من القرن الحالي، الذي "يعتبر تفسيره للوعي الأيدولوجي حتى الآن هو السائد في الغرب .. عاج مسألة العلاقة بين الأيدولوجيا والمجتمع، والأيدولوجيا والعلم، خاصة في كتابيه، سوسيولوجيا المعرفة 1927، والأيدولوجيا والأوتوتيا 1929، فـ"العلم بالنسبة لمانهايم موضوعي، لأنه حيادي وبعيد عن العاطفة، بينما تبقى الأيدولوجيا لتحيزها ولطابعها الطبقي ذاتية ومشوهة للعلم الحقيقي حول الواقع"²⁸. ميز مانهايم بين نوعين من الفكر الاجتماعي المشوه "الأيدولوجيا والأوتوتيا"، أو بتعبير آخر بين "الأدلوحة والطوبى"، فـ"عرف الطوبى بأنها نوع من التفكير يتمحور حول تمثل المستقبل واستحضاره بكيفية مستمرة. وعرف الأدلوحة بأنها التفكير الذي يهدف إلى استمرار الحاضر ونفي بذور التغير الموجودة فيه..²⁹. وتنقسم الأيدولوجيا عنده إلى "تعبير أيدولوجي" انفصالي انعزالي، وآخر "جماعي"، يأخذ الإنسان بالنوع الأول عندما تنظر فئة اجتماعية معينة إلى "الأفكار" و"التصورات" المعنية للخصم على أنها تصورات تشوه الواقع بصورة واضحة (بالكذب والتحريف والخداع..). أما تعبیر الأيدولوجيا الجماعي" فيتم استعماله لوصف "الهيكلي الفكري الجماعي الكامل" لفئة اجتماعية أو لمرحلة كاملة على أنها مشوهة (...). أما

²⁷ مختار، علي. إشكالية العلاقة، ص 139.

* المراد زمن المؤلف طبعاً وهو قريب، ولا شك أن لتحولات العالم الاشتراكي الشرقي، وظهور النظام الدولي الجديد، وتهيأة التاريخ، و"العولمة" آثارها في صياغة وتشكيل أيدولوجيا المرحلة الراهنة على الأقل.

²⁸ موسكفتشيف، ل. ن. نقض الأيدولوجيا ما بين الوهم والحقيقة (نقد للنظرية البورجوازية القائلة بنهاية الأيدولوجيا)، ترجمة حمزة بركاوي، غالب جرار، مراجعة د. جميل هاشم، 1973، ص 45-46.

²⁹ السروي، عبد الله. مفهوم الأيدولوجيا، ص 47، أيضاً: محمد سيلا، الأيدولوجيا مرجع سابق، ص 45.

النظريات الاجتماعية للفتات الاجتماعية المعارضة أو المضطهدة، فإن مانهايم يصفها على أنها أوتوبيا³⁰.

"يرى مانهايم أن الأيديولوجيا في حقيقتها تعبير يستخدم لآهام المعارضين من وجهة نظر طرف يعتبر أن أفكاره تعبر عن الحقيقة المطلقة التي لا تتأثر بموقع معين في المجتمع، أو بمرحلة تاريخية معينة، ويرى أن الماركسية ينطبق عليها القول نفسه، وأن ماركس لم يصل إلى نهاية المنطقية التي يتعين أن يوصله إليها تفكيره بحكم وضعه الاجتماعي وانحيازه الاجتماعي.."، ولهذا سعى مانهايم إلى "تخليص المعرفة من الفكر الأيديولوجي ليرك مكانه لعلم اجتماع المعرفة الذي يعترف بالتأثير الحضاري والاجتماعي في نشوء المعرفة"³¹. سعى مانهايم إلى "استبدال" العقيدة الأيديولوجية" بما يسمى بسوسيولوجيا المعرفة (...). لاعتقاده أنها تقدم حلا لمسألة نسبية المعرفة الاجتماعية، كما أنها تنفي التحليل المتحيز "الوحيد الجانب"..³².

ليس الغرض من إيراد هذه التعريفات مجردة أو مرتبطة بأشخاص، مناقشتها والتعليق عليها. فهذا لا يهمنا كثيراً في سياق تطور الفكر الغربي، ولعل النصوص المقدمة قد حوت شيئاً من ذلك. وقد حرصت على انتقاء هذه التعريفات من مصادر ومراجع مختلفة ومتنوعة، وغالب ما آخذ منها هو ما تكاد تجمع عليه الآراء والأقوال.

الغرض مما تقدم إذن هو بيان مشكلات المصطلح والمفهوم في بيئته، والاضطراب الحاصل فيه وحوله. هل الأيديولوجيا "بناء فوقي" نظري مجرد ومعزول عن توجيه "البناء

³⁰ موسكفتشييف، ل. ن. نقض الأيديولوجيا، مرجع سابق ص 46-47. أيضاً: سبيلا، الأيديولوجيا نحو نظرة متكاملة، ص 44-46.

-Boudon, R-Borricaud, F: opcit, p 295.

³¹ مختار، علي. إشكالية العلاقة. مرجع سابق ص 140.

³² موسكفتشييف، ل. ن. نقض الأيديولوجيا، ص 49-50.

• - انظر استعمالات أخرى لدى عديد من المدارس والأشخاص للمصطلح، مثلاً في العروي: مفهوم الأيديولوجيا، حيث تحدث عن خمسة استعمالات لها في الغرب: استعمال (ق 18)، استعمال الفلاسفة الألمان، الاستعمال الماركسي، استعمال نيتشه، استعمال فرويد، والدلالات التي حملتها مع كل استعمال.

- وانظر روية ريمون: نقد الأيديولوجيات المعاصرة، ترجمة عادل العوا، منشورات عويدات، بيروت-باريس، ط 1/ 1978. حيث درج على استعمال "الأيديولوجية" بمعنى "العقائدية"، فتحدث عن العقائديات العرقية واللاعرقية.. وعقائدية المجتمع والحضارة.. إلخ.

التحتي" والتأثير في الواقع العملي، أم لها القدرة على ذلك التوجيه والتأثير؟ هل هي إفراغ مجرد لواقع طبقي معين، أم هي علم ومعرفة وعقائد ونظريات تصنع ذلك الواقع؟ هل هي كونية شاملة.. أم لها خصوصيات طبقية ونخبوية معينة؟ هل هي منهج أو موضوع؟ هل تُعنى بالذات فقط، أم بالآخر فقط، أم بهما معاً؟ هل عناصرها ومكوناتها إيجابية أم سلبية أم خليط من هذا وذاك؟ إلخ.

هذه التساؤلات وغيرها كثير، كانت مدار الخلاف والنقاش - كما لاحظنا من خلال النماذج التعريفية- الذي ساد بحدة قرنين من الزمان على الأقل (الثامن عشر والتاسع عشر)، كانا بمثابة مخاض عسير لميلاد المصطلح ودلالاته المتعددة واللامتناهية. وقد حمل هذا أحد الباحثين على تسمية القرن التاسع عشر خصوصاً بـ "عصر الأيدولوجيا"، وجعله عنواناً لمؤلفه حيث عرض لكبار الفلاسفة والمفكرين الذي ظهروا في هذا القرن، ولضخامة الأفكار الفلسفية وتنوعها وتعقدها، لدرجة "يصعب على المرء صعوبة بالغة أن يجد مبحثاً أو مسألة كبرى ركز عليها كبار مفكري تلك الفترة اهتمامهم (...). وأن مجرد تجاوز أسماء المشاهير من أمثال هيغل ونيتشة، ماركس وميل، كونت وكير كغارد.. يبرز حالاً إلى الذهن خلافاً لم يسبق لها مثيل، لا تقتصر على الأسلوب والمزاج فقط، بل تضرب أيضاً في الأرضية وفي المنهج. ففي القرن التاسع عشر نهضت سلالات فلسفية كاملة في سنوات قليلة ثم سقطت. وسرعان ما غدت مصطلحات المدرسة الواحدة معميات في نظر المدارس الأخرى. وما إن أشرف القرن على نهايته حتى ازدادت الحدود تداخلًا واختلاطًا، وأصبح من المستحيل عملياً تصنيف الفلاسفة تصنيفات مفيدة غير مظلمة.."³³. بل يذهب الكاتب إلى حد التصريح بقوله: "لا يقتصر رأيي على أن معظم العقائد البارزة والمؤثرة لفلاسفة القرن التاسع عشر هي في جوهرها أيديولوجية الطابع فحسب، بل أرى أنه منذ "كنت" تزايد الوعي بأن المهمة الأولى للنقد الفلسفي لا تمت بصلة إلى "العلم" في

³³ هنري، أيكين. عصر الأيدولوجيا، ترجمة محيي الدين صبحي، عبد الحميد حسن، دار الطليعة، بيروت. ط 2 / 1982، ص5.

معنى من المعاني المألوفة لهذا الاصطلاح، بل تمت إلى شيء لا تلائمها غير كلمة "الأيديولوجيا"³⁴

وإنه لبديهي، بعد هذا، أن نتساءل مع المتسائل، ونجيب معه أيضا: "أي جديد يمكن أن نقوله عن الأيديولوجيا؟ الجواب: لا شيء! ليس بالإمكان تقديم أي تعريف لم يسبق أن اقترح وسجل في مجموعة لا تزال تتسع وتزايد حتى إن أحداً لا يستطيع في الوقت الحاضر أن يدعي أنها كاملة بحوزته، وأن استعمال هذه الكلمة بما فيه أحيانا استعمالها النظري قد وصل إلى حد يعفي من أي تحديد أو تعريف. فالكاتب يكتب (أيديولوجيته) وعلى القارئ أن يفعل الباقي (...). وكان فولكييه يؤكد أن من أقل تعاريف الأيديولوجيا سوءا، التعريف التالي: (الأيديولوجيا هي فكر خصمي)"³⁵.

³⁴ المرجع السابق ص 7. انظر أيضا: تركي الحمد: دراسات أيديولوجية في الحالة العربية (سلسلة السياسة والمجتمع)، دار الطليعة، بيروت ط1 / 1992. فقد جعل مجيء عصر الأيديولوجيا والتحولات الفكرية بعد الثورة الفرنسية، كما تحدث عن تحول مركز النقل مع دخول القرن العشرين في الغرب الرأسمالي، من أوروبا إلى الولايات المتحدة الأمريكية وبرز الأيديولوجيا الوحيدة المسيطرة.. ص 19-20.

- العروبي، عبد الله. مفهوم الأيديولوجيا، حيث ذهب إلى "أنه لا يصح لنا أن نعزو المفهوم إلى عصور سابقة للقرن الثامن عشر الغربي.. [وإن كنا] نجد بالطبع ملاحظات تؤلف نظرية شبيهة بنظرية الأدلوجة (...) [إن] الفكر السابق للقرن الثامن عشر لم يبدع مفهوم الأدلوجة لأنه لم يكن في حاجة إليه"، ص 17.

- مسكيتشيف، ل. ن. نقض الأيديولوجيا، إذ يعتبر نموذجا حيا عن الصراع الأيديولوجي، بين الأيديولوجيا الليبرالية الرأسمالية والأيديولوجيا الاشتراكية الماركسية. فقط انتقد بحدّة مقولة "نهاية الأيديولوجيا" أو ما أسماه بـ"التفريغ الأيديولوجي"، الفكرة التي انطلق بها ريمون أرون عالم الاجتماع الفرنسي وإدوارد شيلير من "مؤتمر الحرية الثقافية" عام 1955 والذي كان يهدف إلى بناء أسس "عقلانية حديثة" و"علم اجتماع حقيقي". واعتبر ذلك "أيديولوجيا بورجوازية" تشكل من حيث المبدأ وعيا خاطئا، وأنه محتوم عليها السقوط أمام "الأيديولوجيا العلمية الماركسية" لأنها "قوية وحقيقية".. ص 11-36.

وانظر في موضوع "نهاية الأيديولوجيا:

- بلقزيز، عبد الإله. أيديولوجيا نهاية الأيديولوجيا، مجلة الفكر العربي، ع 68، ص 13 (2) / 1992، ص 20 وما بعدها.

- محمد سبيلا: الأيديولوجيا، ص 199 (مسألة نهاية الأيديولوجيا).

³⁵ جورج، لايكا. من أجل نَقْصٍ حرج من مفهوم الأيديولوجية، في السلطة والأساطير والأيديولوجيات (عدد من المؤلفين)، ترجمة كمال خوري، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد اللغوي، دمشق، 1980، ص 37-38.

"الأيديولوجيا" في الفكر العربي المعاصر ومُرْكَب الأزمات والحلول

حاولت القيام بمجرد للكتب التي جعلت موضوع "الأيديولوجيا" عنوانات رئيسة أو ثانوية أو محتوى. وحاولت ذلك أيضا بالنسبة للمقالات والأبحاث في المجالات المهمة، بل بلغ بي هاجس التتبع إلى محاولة إحصاء ورود اللفظ في بعض الكتابات.. وانتهيت -وأنا في البداية- إلى أن هذا كله ضرب من العبث أمام لفظ مبهم، كاسح وجارف، انتشر بشكل مريع في الفكر العربي وكذا الإسلامي الراهن، واحتل فيه مواقع من الصدارة والتوجيه من الصعب جدا زعزحته عنها الآن.

"الأيديولوجيا" في الفكر العربي المعاصر مشحوب تعلق عليه كل آفات ومصائب وكوارث.. العالم الإسلامي، والإخفاقات النهضوية، والهزائم العسكرية، وفشل النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية السائدة أو التي سادت.. فالذي فشل هو "الأيديولوجيا"، وليس هذه النظم والاختيارات، ثم إن الأيديولوجيا بعد هذا، هي أيضا مشحوب تعلق عليه كل آمال ورغبات وطموحات وتطلعات النخب العربية للخروج والخلاص من الأزمات والآفات المذكورة. سبب الفشل أو الأزمة هو في "الأيديولوجيا السائدة"، والحل هو في "الأيديولوجيا البديل"، "أيديولوجيا الثورة"، "أيديولوجيا السلفية التراثية".. ترى لماذا لا تسمى المسميات بأسمائها وتتحدد الأشياء بأعيانها؟ لماذا أبي هذا الفكر إلا أن يتحرك في فضاء وتحت غطاء "الأيديولوجيا" الواسع، الذي يمتد من "خيبة الهزيمة" إلى "أمل النصر"، من التزييف والتضليل إلى الاعتقاد والعلم والمعرفة؟ وإن كان المعنى الذي رافق رحلة "الأيديولوجيا" في رحاب هذا الفكر في الغالب الأعم هو المعنى القدحي، حيث زج فيه كل ما لا يروق له ولا ينسجم مع تطلعاته وأغراضه ومرجعياته من معتقدات وقيم ومبادئ وعلوم وآداب وأنماط في الحكم والسياسة وغير ذلك. حتى إنه يمكن أن نقول، إن الغرب كان أقل "أيديولوجية" وهو يتحدث عن "الأيديولوجيا" - وقد نبنت في داره ويفسر علاقاتها بتاريخه وبعلمه ومعارفه وواقعه الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، ويحدد لذلك مظاهر إيجابية وأخرى سلبية- من العرب الذي كانوا أكثر "أيديولوجية" في حديثهم عنها وعن علاقتها بإرثهم الديني والحضاري الذي لم يروا في معظمه إلا السلبات. وحتى ما كان فيه من إيجابيات، فقد تم تحريفها بالتفسير والتحليل

"الأيدولوجي". وليس هذا غريباً عن فكر يشكو الهزيمة والأزمة منذ عقود ، ولم يتبين من حوله مخرجاً عن كثرة ما يتراءى له من المخارج.

إن "الأيدولوجيا" أضحت في الفكر العربي المعاصر قدراً محتوماً لا فكاك عنه، تُقرأ من خلالها وتناقش وتحلل وتعالج قضايا الأمة المصرية، على المستوى التراثي التاريخي، وعلى المستوى الراهن والمستقبلي. ويكفي لبيان "داء الحتمية" هذا أن نقرأ نماذج من النصوص، بغض النظر عن انتماءات أصحابها:

"إن مشكلتنا الأساسية في الوطن العربي هي مشكلة أيديولوجية بشكل خاص. وكل إشكالاتنا إنما تنفرع من هذه المشكلة في المقام الأول، فإشكالية الأصالة والمعاصرة، والعروبة والإسلام، والتراث والثورة، والاستقلال والتبعية، والدين والدولة.. إلى غير ذلك من الإشكالات، ما هي إلا انعكاس وتجدد للفراغ أو الضياع الأيدولوجي أو الثقافي الذي نجد أنفسنا فيه كأمة يفترض فيها وحدة الوعي كتعبير عن وحدتها ذاتها"³⁶.

لاحظ هنا الإشكالات المطروحة وانتظام "الأيدولوجيا" لها جميعها، وكذا تسوية ما هو "أيدولوجي" بالوعي وبما هو ثقافي، بل بالمعرفة عموماً، فـ"الفصل المطلق بين ما هو معرفي بحث وأيدولوجي بحث ضرب من المستحيل، وإن حاول البعض فعل ذلك، فالمعرفي لا ينفصل عن الأيدولوجي. وبالتالي عندما نقول إن أزمة الوطن العربي أزمة معرفة، فكأننا نقول إنها أزمة أيديولوجية، لأن الذهن هو مناط المعرفي والأيدولوجي"³⁷.

يستنتج باحث آخر بعد تحليل مقولة "نهاية الأيدولوجيا" أن "الأيدولوجيا ليست ولن تكون برسم الانتهاء والزوال، لأنها ببساطة ملازمة لوجود الإنسان، محايثة لسلوكه في الواقع وإزاء الأشياء بحيث تمنحه هويته كإنسان"³⁸. وفي مقارنته "الأيدولوجيا" بالعلم يذهب إلى أنه:

"إذا كان العلم ينجح في تجاوز [أخطائه] ويقدم للإنسان إمكانية لتنظيم حوادث الطبيعة في وعيه، وفهمها في نظام سبي يجعلها قابلة للتمثل المنظم.. [فإن] الأيدولوجيا تفعل ذلك أيضاً.

36 الحمد، تركي. دراسات أيديولوجية في الحالة العربية، مرجع سابق ص 81.

37 المرجع السابق، ص 7.

38 بلقزيز، عبد الإله. أيديولوجيا نهاية الأيدولوجيا (مجلة الفكر العربي)، ص 26.

إنها تعطي الإنسان قدرة على تأويل العلاقات الاجتماعية وتنظيم وعيه بمجواتها، بل وتنظيمها بمقتضى منطق أو قاعدة أو مبدأ أو قيمة يتواضع عليها الناس، ويحصل الاجتماع بينهم على اعتمادها. وهنا لا تقل الوظيفة الاجتماعية للأيديولوجيا عن الوظيفة المعرفية للعلم³⁹.

لاحظ هنا أيضا تسوية "الأيديولوجيا" من حيث الوظيفة بالعلم الذي كان من أكبر خصومها لدى معظم الباحثين الغربيين. والقدرة الهائلة التي تعطي لها في التنظيم الاجتماعي، بل وفي تحديد هوية الإنسان!

"إن الأيديولوجيات تعتبر هي الأوعية الهامة الوحيدة التي يتم فيها نقل الأفكار السياسية في عصرنا، ودون الأيديولوجيا فإننا نكون تقريبا دون ضمير، ودون قانون أو نظام، ودون مرساة أو ميناء (...). فالأيديولوجيات تصوغ دوافعنا واتجاهاتنا ونظمنا السياسية. بل إنها بالأحرى تمثل قيمنا"⁴⁰

لاحظ أن "الأيديولوجيا" تقوم مقام الضمير، والقانون والنظام.. وتمنح القيم، بل أكثر من هذا فإنها تعتبر "إلى حد كبير للغاية جزءا من حياتنا، وهي لا تفنى أو تموت ولا تتجه إلى التلاشي في أي مكان. فجميعنا، سواء أكنّا نعترف بذلك أم لا، يمتلك أيديولوجية معينة..⁴¹

"هكذا يبدو وكأنه من المستحيل أن يتحرر الفكر الإنساني من طابعه العقائدي الأيديولوجي، ولعل ذلك يوضح لنا إمكانية استخدام مصطلح الأيديولوجيا في ضوء معنى متسع يصعب أن يخلو منه أي مذهب فكري. فالمذاهب الفكرية التي ظهرت في جميع عصور

39 نفس المرجع والصفحة.

40 علي، محمد أحمد إسماعيل. الأيديولوجيا العربية والتنمية المجتمعية، مجلة الوحدة، ع 75- س 7 / 1411-1990، ص 87.

41 نفس المرجع، ص 98، جعل من خصائص "الأيديولوجيا العربية الناجحة": الشمول، تقديم حلول لمشاكل المجتمع، السيادة، الانتشار، التركيز، البساطة، الأساس الأخلاقي، القيادة أو جماعة النخبة، الصبغة البرغماتية، الارتباط بالهوية.. وجعل من أسباب فشل "الأيديولوجيا" العربية التي اعتبرها "أيديولوجيا اصطناعية" لكونها مستوردة أو من طرف الحكومات: ضعف الإيمان الأيديولوجي، الغموض الأيديولوجي، عدم الاستقرار الأيديولوجي، التناقض في الممارسة، ضعف النمق السياسي، قصور عملية التنمية.. إلخ. فـ"الأيديولوجيا كما ترى هي كل شيء، وإذا نزعناها عن هذا الكل وسميناه بأسمائه أصبحت لا شيئا.

التاريخ لها طبيعة أيديولوجية (...) ولعل ما يدعم هذا الاستخدام أنه يستحيل أن نتخيل أن يحيا الإنسان دون أيديولوجيا، أو بعبارة أخرى يحيا دون عقيدة أو أسطورة..⁴²

ها هنا "الأيديولوجيا" عقيدة وأسطورة، مرة أخرى خاضعة للمذاهب الفكرية على مر العصور التاريخية. فـ "كل استعمال لمفهوم الأدلوجة مرتبط بمجال وبعلة وبوظيفة، ويقود حتماً إلى نظرية ويخلق نوعاً من التفكير"⁴³، "أدلوجة كل عصر من العصور هي الأفق الذهني الذي كان يحد فكر إنسان ذلك العصر"⁴⁴، فـ "الأيديولوجيا" أيضاً نظرية، وذهنية، بل هي أخيراً "دين جديد" عليه أن ينتصر على كل الأديان، خاصة إذا اقترنت بالطابع الثوري الانقلابي، فـ "الأيديولوجيا الانقلابية تمثل دينا جديداً ينافس الأديان السابقة في تملك نفوس الناس، ولهذا فإن حياتنا ذاتها ترتبط بالنصر النهائي الذي تستطيع أن تسجله ضد الأديان"⁴⁵.

من خلال هذه العينة التمثيلية، المحدودة جداً نجد أن "الأيديولوجيا" تعني: كل إشكاليات الفكر العربي المعاصر، كل المذاهب الفكرية، الوعي، الضمير، القانون، النظرية، الذهنية، الأسطورة، العقيدة، الدين، الهوية، المعرفة، الثقافة، العلم.. وبقدر ما نضيف من التعاريف بقدر ما ينضاف من المعاني. ثم بعد هذا هي "خالدة" مع الإنسان حيث كان.

إن المفكرين العرب - وهم يحددون وظيفة "الأيديولوجيا" في "تزويد الأفراد والمجتمع والأمة ككيان جماعي بهوية جماعية مميزة.. تحدد للفرد من هو، وتحدد للأمة من هي، مع ما يترتب على ذلك من أدوار ورسالة تاريخية وأهداف مستقبلية"⁴⁶ - مدركون ومقتنعون بأن "تاريخ مصطلح الأيديولوجيا تاريخ مضطرب.. ظل منذ مولده محط صراع إبستمولوجي وأيديولوجي حول دلالاته ومدى مشروعيته في الإشارة إلى وقائع معينة..⁴⁷ مدركون

⁴² الجزائري، محمد مجدي. حول مستقبل الأيديولوجيا، مجلة الوحدة، ع 75، س 7 / 1411-1990، ص 37.

⁴³ العروي، عبد الله. مفهوم الأيديولوجيا، ص 12.

⁴⁴ المرجع السابق، ص 10، يحاول الكاتب إضفاء الطابع النقدي إلى جانب الوصفي في "الأيديولوجيا" تمييزاً لها عن المفاهيم الأخرى، والحاصل أن النقد يقوم بها كما يقوم بغيرها من المفاهيم، انظر له: ص 11-12.

⁴⁵ البيطار، نديم. الأيديولوجيا الانقلابية، المؤسسة الأهلية للطباعة والنشر، بيروت، ط 1 / 1964، ص 746.

⁴⁶ سبيلا، محمد. الأيديولوجيا، ص 16، وما يقوله الكاتب هو باستقراء ولو جزئي، لسان حال جل الكتاب.

⁴⁷ المرجع السابق، ص 47.

ومقتنعون أيضا بأن "الخطاب الأيديولوجي يلجأ إلى المنطق الاستدلالي، وإلى الحجاج المبني على المغالطة والمعبر عن اندفاع الرغبة وقوة الهوى واندفاع المصلحة. فهو يستخدم الحقائق العلمية والمعتقدات الدينية والرموز الأسطورية، وكل ما يساعد على إقناع الآخرين إنه ليس خطابا عقليا خالصا، بل خطاب مرتبط بالأهواء الإنسانية، وبالتالي باللاعقل"⁴⁸، فهو خطاب لا يفرض نفسه إذن "بمنطق العقل والحجج والإثباتات البرهانية، بل بأساليب تتراوح بين الترغيب والترهيب، وبين الإقناع والإكراه"⁴⁹. إن "الأيديولوجيا" تكاد "في الاستعمال اليومي أن تكون مرادفة للسياسة، وكأن الأيديولوجيا هي مضمون سياسي، وكأن السياسة هي التطبيق العملي للأيديولوجيا"⁵⁰. وأن التفكير الأيديولوجي والتفكير السياسي صنوان من حيث الآليات المعرفية والاستدلالية، فهما معا يقومان على اعتبارات براغماتية ومنفعية حسب الضرورة والحاجة⁵¹.

إن "الأيديولوجيا" باختصار "ممارسة مثقلة بالغائية، ومن ثم تحدد الغاية من الأيديولوجيا مهمتها، بمعنى أننا إزاء بنية من الأسئلة والأجوبة، لكنها بنية تحتوي حلولاً زائفة وهمية لمعضلات حقيقية (...). إن الأيديولوجيا في النهاية أفكار عن واقع ابتغاء هدف نفعي متعين، يختلف مداه وتباين مستويات صياغته تبعا لطبيعة الطبقة وتكوينها ودورها ووعيتها بهذا الدور في علاقاتها بغيرها. وفي موضعها من المجتمع (...). إن وجود العناصر المعرفية في الأيديولوجيا يأتي في سياق مثقل بالغائية والمنفعة (...). فالأيديولوجيا لا يعتد في أفكاره بوجود "مشترك" إنساني مجاور لطبقته إلا في حدود جدوى هذا "المشترك" لطبقته أولا"⁵².

المفكرون العرب يدركون هذا طبعا، وبالرغم من ذلك كله تحتل "الأيديولوجيا" عندهم مساحة الزمان والمكان، وتستغرق منجزات العقل والوجدان. والواقع أن المصطلح

⁴⁸ المرجع السابق، ص 122.

⁴⁹ المرجع السابق، ص 148، وانظر فيه أنواع الاستدلالات والمغالطات التي تمارسها الأيديولوجيا.. ص 120-170.

⁵⁰ المرجع السابق، ص 57.

⁵¹ الجابري، محمد عابد. العقل السيلسي العربي.. المركز الثقافي العربي، ط 1990 - ص 6.

⁵² بدوي، محمد. ملاحظات حول الفكر والأيديولوجيا في مصر الحديثة، مجلة الاجتهاد، ع 10-11، ص 3 / 1411-1991، ص 144-145.

صادف بيئة أو محيطا يعيش أوضاعاً من الترهل والاسترخاء، بسبب من الغزو الاستعماري والانحطاط الموروث وفشل الحلول المستوردة منذ عقود.. فكانت ملجأ للحلول الوهمية المضللة، والتبريرات الزائفة أمام مشكلات الأمة الكبرى والحقيقية. وكان معظم مستعملي المصطلح والمروجين له، مفكرين ذوي نزعات ماركسية وليبرالية وقومية وعلمانية.. ممن يرون الحل هناك لا هنا. كما استعمله مفكرون آخرون بقصد أو بغير قصد بعدما عم وشاع. إن المصطلح كان لدى فئات عريضة في الأمة من المثقفين والمتعلمين، حجاباً دون الرؤية الصحيحة للواقع، والنظرة الموضوعية للتاريخ، والاستشراف الحقيقي للمستقبل. كان يدغدغ المشاعر بعبارات واهمة تعبر عن الرفض والاحتجاج، ويؤمن في الوقت ذاته ببقاء الفوارق الطبقية ونظم الظلم والاستبداد ومظاهر التجزئة والتفتت.

إنني أعتقد أن مصطلح "الأيديولوجيا" لا يمكن أن يعدو في تعريفنا له، كونه أسلوباً وطريقة، ولا أظنه يرقى إلى مستوى "منهج"، يوظف كل المفاهيم والمعاني التي أضيفت له على أساس أنها هي ذاته، كالهوية والضمير والعقيدة والمعرفة والثقافة.. إلخ، من أجل التبرير والإقناع لغرض من الأغراض. أو لنقل باختصار "الأيديولوجيا" هي: أسلوب تبريري لغرض ما. ولهذا فمعالجة مسألة الهوية مثلاً شيء، ومعالجة الهوية باعتبارها "الأيديولوجيا" شيء آخر. الاعتقاد والتدين شيء، واعتبار الاعتقاد والتدين "أيديولوجيا" شيء آخر.. وهكذا فإنك تضيف دائماً نزعة تبريرية غائية وتوجيهية على مختلف الموضوعات المدروسة والمعالجة. وهو أسلوب لم يعد له نفع ولا من ورائه جدوى بعد فشل وانتهزام مرجعياته الموجهة.

لهذا أيضاً يذهب بعض الباحثين، ممن تقدم ذكرهم وغيرهم إلى تأكيد ضرورة التمييز بشكل أو بآخر بين "الأيديولوجيا" وباقي الموضوعات الأخرى، فـ"العلم يحاول أن يكون موضوعياً (منتمياً إلى الموضوع) أي قائماً على الأحكام الوصفية المتعلقة بالوقائع والظواهر كما هي، في حين أن الأيديولوجيا تتميز باعتمادها على أحكام القيمة. العلم يضارع من أجل الكشف عن الوقائع والبيانات والقوانين لفهمها والتحكم فيها، لذلك فهو يميل ما هو

معطى ويحترم الوقائع. أما الأيدولوجيا فهدفها هو تحقيق الفوز والانتصار واكتساب أفئدة المتعاطفين⁵³.

إن "مشروعية العلم نابعة بالضبط من أنه يرفض أن يكون أيدولوجية، أي أنه يحدد ميدانه خارجها. ولكنه وهو يفعل ذلك لا يلغي ميدانها ولا شرعيتها..⁵⁴.

ويحسن التمييز "بين الثقافة والأيدولوجية. فالأيدولوجية التي تعكس مجموعة من التصورات العامة والخاصة لجماعة كاملة أو لفئة اجتماعية لا تغطي إلا عنصرا من عناصر الثقافة، وتدخل في نطاق الإنتاج الاجتماعي للأفكار. لكن الثقافة عملية معقدة تضم كل السيوررات التي تشترك في إنتاج التصورات الكبرى الأيدولوجية والمفاهيم العلمية والمعارف والعادات والمواقف والاتجاهات المختلفة..⁵⁵.

وعلى كل فإن "أي سياسة ثقافية تقوم على فرض أيدولوجية على العقل، ذاتية كانت أو ترائية، تقتل الحوار وتفرض بالضرورة إلى إلغاء الوعي، وإلغاء الثقافة كنسج للإبداعات والتجديدات الذاتية، وتغلق بالتالي أفق أي تغيير فعلي. إن السياسة الوحيدة المنتجة في الثقافة لا يمكن إذن أن تكون إلا حرية الثقافة"⁵⁶.

سبقت الإشارة إلى أن حصر، أو حتى التمثيل بأكبر قدر ممكن من الكتابات في موضوع "الأيدولوجيا" أمر متعذر، ولهذا سنضطر إلى التحدث عن نماذج مختلفة في مناهجها ورؤاها للموضوع. مع تأكيد أن الذي يهمنا فيها هو آثار المصطلح من خلال توظيفاته المختلفة في مكونات الأمة الثقافية والمعرفية، بعدما تبينا تجذره وهيمته "المطلقة" سواء من خلال مؤلفاته المباشرة في الموضوع كـ "الأيدولوجيا العربية المعاصرة" و"مفهوم الأيدولوجيا"..⁵⁷ أو غير المباشرة كـ "العرب والفكر التاريخي"، "ثقافتنا في ضوء التاريخ"..⁵⁸ وغيرها.

⁵³ سبيلا، محمد. الأيدولوجيا، مرجع سابق ص 148. وانظر محمد بدوي: ملاحظات حول الفكر والأيدولوجيا.. (مجلة الاجتهاد)، ص 144-145.

⁵⁴ غليون، برهان. اغتيال العقل، محنة الثقافة العربية بين السلفية والتبعية، دار التنوير، ط 2 / 1987، ص 219.

⁵⁵ غليون، برهان. مجتمع النخبة، معهد الإنماء العربي. ط 1 / 1986، ص 221-222.

⁵⁶ غليون، برهان. اغتيال العقل، دار التنوير، ط 1 / 1995، ص 351.

يحدد العروي مراده بـ "الأيديولوجيا" (الأدلوحة) في أشياء ثلاثة:

أولاً: "ما ينعكس في الذهن من أحوال الواقع انعكاساً محرفاً بتأثير لا واع من المفاهيم المستعملة".

ثانياً: "نسق فكري يستهدف حجب واقع يصعب وأحياناً يمتنع تحليله".

ثالثاً: "نظرية مستعارة لم تتجسد بعد كلياً في المجتمع الذي استعارها لكنها تتغلغل فيه كل يوم أكثر فأكثر..."⁵⁷.

وكلها عناصر في التحليل لا تضيفي على "الأيديولوجيا" أي معنى إيجابي. ويميز الكاتب في "الأيديولوجيا العربية المعاصرة" بين ثلاثة تيارات أساسية: سلفي وليبرالي وتقني.⁵⁸ يفترض الأول أن "أم المشكلات في المجتمع العربي الحديث تتعلق بالعقيدة الدينية" اختزله الكاتب في لفظ "الشيخ" ومثل له محمد عبده. ويفترض الثاني أنها تتعلق بـ "التنظيم السياسي" واختزله في "رجل السياسة" ومثل له بلطفي السيد. ويفترض الثالث أنها تتعلق بـ "النشاط العلمي والصناعي" واختزله في "داعية التقنية" ومثل له بسلامة موسى. وهم يمثلون "لحظات ثلاث يمر بها تباعا وعي العرب وهو يحاول منذ نهاية القرن الماضي إدراك هويته وهوية الغرب"⁵⁹. وقد وُجّهت إلى العروي عدة انتقادات حول هذا التقسيم، نذكر منها أن التيارات المذكورة "لا تمثل في ذاتها تقسيمات متميزة تماماً عن بعضها البعض لو نظرنا إليها من زاوية الاجتماعية لا من زاوية الأيديولوجية المجردة، فما أكثر ما نجده بينهما من تداخلات"⁶⁰.

الشاهد عندنا من هذا الانتقاد أمران: الأول هو التداخل الحاصل بين التيارات الثلاثة المذكورة، بالشكل الذي لا يجعل بعضها خصيم بعض، وإن بدت عند أصحابها كدعوات غالبية - بغض النظر عن مدى تمثيل الشخصيات المختارة للتيارات المذكورة، هذا فضلاً

⁵⁷ العروي، عبد الله. الأيديولوجيا العربية المعاصرة، المركز الثقافي العربي، ط 1 / 1995، ص 29 (هذه النسخة ترجمها العروي بمرجع سابق عن الأصل الفرنسي الذي صدر له سنة 1967).

⁵⁸ العروي، عبد الله. الأيديولوجيا العربية المعاصرة، المرجع السابق ص 39 وما بعدها.

⁵⁹ المرجع السابق، ص 48.

⁶⁰ العالم، محمود أمين. الوعي والوعي الزائف في الفكر العربي المعاصر، عيون الثقافة الجديدة، ط 1 / 1988، ص 41.

عن أن تكون "لحظات يمر بها تباعا وعي العرب" سواء اقتضى هذا التابع انقطاعا بين اللحظات، أو حضورا ضعيفا لكل لحظة في التي تليها. فالواقع يعكس تزامن هذه التيارات المذكورة وتداخلها وإن تصدّر بعضها في فترة ما لظروف ما. ثم هل هذه التيارات هي كل ما يشكل الوعي العربي المعاصر أو "الأيديولوجيا العربية المعاصرة"، أم أن هناك تيارات أخرى مسكوت عنها أو مصرح بها بشكل آخر، كالقومية التي سبقت مساقا نقديا. والماركسية التاريخية التي قدمت حلاً ومخرجا..؟

الأمر الثاني: هو النظر إلى هذه التيارات من الزاوية الاجتماعية المحضة حيث تتكشف عناصر الالتقاء والتداخل بينها، بخلاف النظر إليها من الزاوية "الأيديولوجية" حيث تعلو الفروق والتميزات بينها. وهذا أمر مهم بالنسبة لتتبع آثار المصطلح في الفكر العربي المعاصر. وسنرجع إليه.

لم يسلم الكاتب من ثنائية "الأيديولوجيا مشكل وأزمة / الأيديولوجيا حل ومخرج"، ففي توضيحه لدوافعه إلى الكتابة في الموضوع، ما لاحظته من "مشكل النقص الأيديولوجي" أو "العجز الأيديولوجي"، ثم البحث في "دور الوعي الثوري والتكوين الأيديولوجي، في رفع مستوى القيادة الثورية"⁶¹. وأيضا الحوار الخفي مع الثوريين "العمليين الذين لم يقدروا وزن الأيديولوجيا الثورية فحفروا قبورهم بأيديهم في آخر الأمر (...). خاصة وأن التقدميين كانوا وما يزالون يخافون من النظرية والأيديولوجيا رضوخا للضغط وتأثراً بالذهنية التقليدية المحافظة.."⁶².

إن "الأيديولوجيا الأزمة" عند "الخصوم الثلاثة" تحتاج إلى "الأيديولوجيا الحل" في المنهج الماركسي التاريخي. وتكاد تتمحض "الأيديولوجيا الخصم" عنده في التراث والأصالة، إذ جعل شرطا "لكل من أراد نقد الوضع الفكري العربي أن يبدأ من البداية، أي بنقد الفكر التقليدي السائد (...). [الواقف] ضد الأفكار المستوردة والغزو الفكري والروحي، [المكتفي] بالأيديولوجيات التقليدية (=التراث العربي الإسلامي) التي تُكوّن

* حاول الكاتب تجاوز هذه المسألة معتبرا "التحقيب المقترح ثقافيا، فلا يطابق بالضرورة مرحلة التطور السياسي.."، الأيديولوجيا العربية المعاصرة، ص 49-50.

⁶¹ العروى، عبد الله. العرب والفكر التاريخي، دار التنوير، المركز الثقافي، ط 2، 1985، ص 56.

⁶² العروى، عبد الله. العرب والفكر التاريخي، مرجع سابق ص 58.

نظاماً عقائدياً كافياً وشافياً قادراً على تزويدنا بكل ما نحتاج إليه من حلول لكل مشكلات العصر [!!]"⁶³. وفي المقابل "إذا أردنا أن نعطي فعالية لعملنا الجماعي، وإبداعية حقيقية لممارستنا السياسية والثقافية، فلا بد من ثورة ثقافية تعم المجتمع بجميع فئاته وتغلب المنهج الحديث في الصورة التي ظهر بها في بقعة معينة من العالم [!!] لا في ثوب مستعار من الماضي. هذه الثورة ما زالت في جدول الأعمال، لأن العالم من حولنا يؤثر فينا ولا أمل لنا أن نؤثر فيه يوماً إذا انعزلنا فرحين بما لدينا من حقائق لا يفهمها إلا نحن"⁶⁴.

هذا عجيب من مؤرخ متشبع بمنهج تاريخي ماركساوي، لا تهمه حقائقه ومعطياته الذاتية، فعنده أن "من يدافع عن التراث هو بالضبط من لا يعرف سوى التراث"⁶⁵، بقدر ما تهمه معطيات وحقائق الآخر التي يرى فيها وبها وحدها حلاً لمشكلات الذات وأزماتها، وعنده أيضاً أن "الرأسمالية الليبرالية أحسن بكثير من وضع القرون الوسطى الذي نعيش فيه"⁶⁶.

عجيب من باحث يقول في مفهوم الديمقراطية اليونانية، "إن وراء الديمقراطية توجد فلسفة كاملة، ولا يمكن أن تقحم الديمقراطية في أي فلسفة اخترناها"⁶⁷، ثم لا يرى حرجاً ولا مانعاً تاريخياً أو موضوعياً من إلحاق حضارة بكامل مقوماتها الذاتية بـ "منهج حديث" يظهر في "بقعة معينة من العالم!" ولا شك في أن هذا نموذج من التقليد يعكس حالة من الاغتراب الكلي الزماني والمكاني، الباحث عن "خميرة للمجتمع العصري الخلاق

⁶³ المرجع السابق، ص 59.

⁶⁴ المرجع السابق، ص 43 (والتشديد مني).

⁶⁵ المرجع السابق، ص 59.

⁶⁶ المرجع السابق، ص 72، انظر توضيحه لليبرالية الماركسية، (استيعاب المرحلة الليبرالية تحت غطاء الماركسية) الأيديولوجيا العربية المعاصرة، ص 17.

⁶⁷ المرجع السابق، هامش ص 154.

* نقول هذا اعتباراً من جهة للتجاوز التاريخي للمقولات الماركسية وتجاربها والأحلام والتمنيات المنسوجة حولها. ومن جهة أخرى، لتحذير الكاتب من خطر مقابل واستلاب أكبر هو "الاغتراب" القائم على اللغة وإحياء التراث.. وكونه سياسة ثقافية تغطي وضعاً ثقافياً واجتماعياً معيناً (ص 207 وما بعدها). ولتمسائل هنا أن يتساءل لم لا يكون العكس؟ أي كون الاغتراب بالبحث عن حلول مشاكل الذات عند الآخر، لا بمقومات الذات -السياق التاريخي والاجتماعي والثقافي الطبيعي لها- هو الذي يقوم بدور التغطية لتلك الأوضاع.

(أيدولوجيا معينة [تجعل]).. في قلب المجتمع التقليدي العقيم⁶⁸ من أجل عصرته وتحديثه. و"الماركسية هي ذلك النظام المنشود الذي يزودنا بمنطق العالم الحديث (...). (المنطق الديمقراطي الليبرالي)" سوف تحتل المراحل وتنقلنا فوراً إلى "روح العصرية ومفهوم المعاصرة"، "الماركسية (على أساس المنفعة) هي أحسن طريق لاستيعاب ذلك المنطق ولكي تلائم ذهنيّاتنا ووضعياتنا..⁶⁹ . و"الأمة العربية الآن في حاجة إلى أن تتلمذ على الماركسية التاريخية"⁷⁰.

وإذا رجعنا إلى "الخصوم الأيدولوجيين" في الفكر العربي المعاصر (الشيخ والليبرالي والتقنوي)، وأردنا أن نلتمس لهم تماثلات مشتركة، فإن أعلى صور التمثل، لدرجة التماس والمتاخمة، عندما يكون في أوج نفوذه، وكامل ثقته بنفسه، هي مع الماركسية، وانفتاحاً عليها. ويبقى التمثل المشترك للذات وللماضي مرتبة دون ذلك⁷¹. وقد لا نستغرب لهذا كثيراً إذا علمنا أن الكاتب إنما كان يخوض "معركة أيدولوجية" باسم "الأيدولوجيا"، فمهمة المثقفين العرب عنده هي في "السيطرة على المجال الثقافي الذي أهمل منذ عقود وترك في أيدي السلفيين، وأن أضمن سبيل للإحفاق هو إهمال المعركة الأيدولوجية"⁷².

من نفس المنطلقات والدوافع تقريباً انطلق باحث آخر لخوض نفس "المعركة الأيدولوجية"، هو ندم البيطار في مؤلفه "الأيدولوجية الانقلابية". فالحاولتان تشتركان في عنصرين رئيسين:

الأول: نفس ونفي "الأيدولوجيا التقليدية" المتمثلة في كل أشكال الأصالة والتراث، وخاصة العقيدة الدينية التي ما تزال متحكمة..

والثاني: استحضار "البديل الأيدولوجي" الذي سيسد "الفراغ والعجز الأيدولوجيين" لدى الثوريين العرب، سواء كان في صورة "الأيدولوجيا ماركسية

⁶⁸ المرجع السابق، ص 62.

⁶⁹ المرجع السابق، ص 63.

⁷⁰ المرجع السابق، ص 68.

⁷¹ العروي، عبد الله. الأيدولوجيا العربية المعاصرة، مرجع سابق ص 170.

⁷² العروي، عبد الله. العرب والفكر التاريخي، مرجع سابق ص 72.

تاريخية"، أو "الأيدولوجيا الانقلاية" تحكمها "قواعد أو سنن حتمية" وجهت جميع الانقلابات الثورية البشرية عبر التاريخ.

يعرض البيطار على امتداد كتابه الضخم الانقلابات الكبرى التي تمت في التاريخ، (مسيحية، شيوعية، ليبرالية، نازية، بروتستانتية...) باحثاً فيها ومؤكداً على "ثابت" الانقلاب وسننه الجارية، والتي ينبغي للفكر العربي أن يدركها ليتجاوز "المرحلة الانقلاية" التي يعيشها منذ الانقلاب الوحيد الذي عرفه. بمجيء الإسلام إلى اليوم، والذي استفد أغراضه وترك فراغاً عقائدياً وروحياً كبيراً... فلا بد من "أيدولوجية انقلاية" تحل محل "الأيدولوجية التقليدية" وتسد مسدها. ولترك الكاتب يوضح أغراضه من الكتاب بنفسه. يقول: "إن المرحلة العربية الحالية وهي مرحلة انتقالية ثورية، ليست الأولى من نوعها، فالتاريخ كان مسرح العديد من هذه التجارب ... لكن إن نحن أردنا أن نكشف عن المنطق الذي يسود هذه المرحلة في الأمة العربية ... فندرك سيرها وننبئ بالمصير الذي سيتمخض عنه هذا السير، وجب أن نقارن هذه المراحل الانقلاية في التاريخ، فنرى إن كان هناك من سنن أو على الأقل من اتجاهات أساسية تسودها، أي تردد ذاتها وتفرض نفسها في كل منها (...). فإن صح هذا كان بالإمكان ضبط قوى الحركة العربية القومية الانقلاية.."⁷³. وإن كان "لكل أيدولوجية انقلاية خصائصها"، فإننا "في تاريخ الانقلابات نرى بعض الخصائص تعيد ذاتها، فتكشف عن تشابه عام يمكن تعيينه بوضوح ...، وتحاول هذه الدراسة أن تعبر عن الحالة التهديمية التي تنطوي عليها كل أيدولوجية انقلاية". قصدها الأول الهدم، هدم التقليد العقائدي الذي يسود الوجود العربي، وهدم المفاهيم الروحية الفكرية العقائدية التي تعبر عن الحركة العربية الثورية"⁷⁴. إن هذه الحركة (العربية الثورية والقومية) في سياق التعرف على نظام "الأيدولوجية الانقلاية" كما يحدده الكاتب، "تستطيع أن تكشف عن سنن المراحل الانقلاية فتتبعها، وبذلك توفر نشاطها وتريح ذاتها من آلام الخيبة والفشل وتختصر طريقها إلى المصير الجديد.."⁷⁵. "إن جميع النكسات التي أصابت الحركة العربية وجميع إشارات الضعف والتفكك كلها نتائج فقدان

⁷³ البيطار، نديم. الأيدولوجيا الانقلاية، مرجع سابق ص 7-8.

⁷⁴ المرجع السابق، ص 48.

⁷⁵ المرجع السابق، ص 48.

فلسفة حياة جديدة. أو بكلمة أخرى، أيدولوجية انقلابية⁷⁶، "تمتد إلى جميع مناحي الحياة وأوجه النشاط الإنساني، وتفرض عليها صورتها الخاصة"⁷⁷.

ويقدر الكاتب في خاتمة الدراسة كنتيجة أولى "أن مشكلة الحركة العربية القومية الثورية هي مشكلة التعبير عن ذاتها في أيدولوجية انقلابية تحل محل فلسفة الحياة أو الأيدولوجية التقليدية التي سادت الوجود العربي التقليدي"، "التحرر من فلسفة الحياة التي عبرت عن الوجود التقليدي وهي فلسفة غيبية، واعتماد فلسفة حياة أو أيدولوجية جديدة تنقضيها، تنبثق من روح و مناخ العصر، وتجد قاعدتها في التاريخ والمجتمع وليس فيما وراء الطبيعة كسابقتها..."⁷⁸. تلتقي هذه الأقوال مع سابقتها عند د. العروي- لتؤكد ما قررناه سابقاً بخصوص مصطلح "الأيدولوجيا" وما يلعبه من أدوار متقابلة باعتباره أزمة وحلاً، وتوظيفه خاصة في نقد التراث العربي الإسلامي جملة وبلا تفصيل. ولتؤكد كذلك على أزمة حقيقية لدى أصحاب هذا الاتجاه في الفكر العربي المعاصر، تجد متنفساً لها في هذا الشكل من التعبير الواهم أمام فشل أطروحاتها وتقدم مقولاتها، واستمرار ما اعتبرته "الأيدولوجية التقليدية" أمراً حياً، يسجل حضوره بقوة واستمرار، زمانياً ومكانياً، وقدرته الفارقة على الاستيعاب والشمول والتجاوز بما في ذلك استيعاب وتجاوز مقولات "الخصوم" أنفسهم. إنه برهان تأكيد على أن الذات العربية الإسلامية لا يمكنها التحرر والانعقاد إلا بشروطها الحضارية أولاً، وليس بالانسلاخ والتمرد على تلك الشروط.

ونجد طائفة أخرى من الباحثين تجعل من التراث والأصالة منطلقات لها في البحث والدراسة، لكن بمنهجيات معظمها مستعار، ومحاكاة ضمنية أو صريحة لتجارب الغرب ذاتها في النهضة والتحرر، وكأنه بحث عن مشروعية لها في داخل التراث والتاريخ الإسلامي. يقول حسن حنفي مؤكداً هذه الأرضية "الأيدولوجية" للانطلاق من خلال مشروعه الفكري "التراث والتجديد": "إذا كان ما تشكو منه البلاد النامية على المستوى

⁷⁶ المرجع السابق، ص 49.

⁷⁷ المرجع السابق، ص 549.

⁷⁸ المرجع السابق، ص 987.

* ندرج في هذا الإطار، بشكل أكثر انتقائية وتجزئية، أعمال كل من حسين مروءة في "الزعات المادية.."، وطبيب تريني في "مشروع رؤية جديدة..". وما شاكلهما، من حيث توظيف المنهج المادي التاريخي الجدلي والانتصار له من التراث.

الأيديولوجي هو عدم الوضوح النظري والتذبذب بين أيديولوجيات الشرق والغرب معاً، فإن عملية "التراث والتجديد" هي الكفيلة بتحقيق هذا الوضوح النظري، وإعطاء أيديولوجية قومية للبلاد النامية تنبع من أرضها، وتمتد جذورها في تاريخها، وتجيب متطلبات واقعها. تكون الأيديولوجية حينئذ تعبيراً عن الثقافة الوطنية للشعوب وتأكيداً لذاتيتها وإبقاء على هويتها"⁷⁹. فـ"العمل الأيديولوجي جزء من تغيير الواقع وأساسه النظري، ولن يتغير الواقع إلا بعد عمل أيديولوجي"⁸⁰.

ونرجع إلى مسألة مهمة في تداول مصطلح "الأيديولوجيا" في الفكر العربي المعاصر سبقت الإشارة إليه باختصار، وهي أيضاً من آثاره السلبية المدمرة لا للثقافة العربية الإسلامية من حيث خصائصها ومقوماتها فحسب، بل أيضاً من حيث مشاريعها المستقبلية، وآفاق الوحدة والتعاون فيها، وأقصد ظاهرة التصنيف والتقسيم وتوزيع الأدوار وتحديد المواقع.. والتركيز على الفوارق مهما صغرت وضعفت، بل والتعقيب عليها والبحث فيها وإثارة الإشكاليات الهامشية والثانوية بوجه المشاريع الكبرى للأمة التي هي عناصر وحدة أكثر منها عناصر فرقة حتى بين أطراف الأمة الفكرية القصوى. وهذا طبعاً من وظائف "الأيديولوجيا" ذاتها باعتبارها بحثاً عن مكونات وظنون وخفايا.. أو تأويلات واحتمالات نظرية اصطحتها -كمفهوم- من واقع الصراع الطبقي الاجتماعي والسياسي والديني والثقافي في الغرب. فإذا كانت "الأيديولوجيا" هناك تعبيراً عن صراعات عصر النهضة وفلسفة الأنوار، وصفاً لحال ماضى وتم تجاوزه في سياق التكتلات والتحالفات الحالية، فإنها عندنا ما تزال تقريراً لذلك الحال لا تجاوزه له. وليس معنى هذا الرغبة في السكوت عن الخلافات الداخلية، أو إهمال النزعات المحلية بين فرق وتيارات فكرية وسياسية وغيرها، ولكن فرق كبير بين أعمال مبضع "الأيديولوجيا" في التحليل والبحث، وبين النقد المعرفي، أو البحث العلمي الاجتماعي أو السياسي أو الثقافي أو النفسي.. المنطلق من معالم منهجية منضبطة في كلياتها على الأقل.

ويكتفي أن نشير هنا بسرعة إلى عمليتين أخريين تتضح فيهما معالم هذه التجزئة الفكرية وفقاً لمقتضيات "الأيديولوجيا" طبعاً:

79 حنفي، حسن. التراث والتجديد، المركز العربي للبحث والنشر، 1980، ص 51.

80 المرجع السابق، ص 58.

الأول لأنور عبد المالك "الأيدولوجيا والبعث القومي، مصر الحديثة". عرض فيه لانتهاجين أساسيين في الفكر العربي المعاصر في مصر خاصة، هما: الأصول الإسلامية والليبرالية. ثم قسم كل اتجاه منهما إلى جناحين، جناح يميني وجناح يساري. فالإخوان المسلمون يمثلون عنده الجناح اليميني من الأصولية الإسلامية، على حين يمثل الاتجاه القومي البعثي والناصرية الجناح اليساري. أما التيار الليبرالي فجناحه اليميني تمثله البرجوازية الوطنية، وجناحه اليساري تمثله التيارات الاشتراكية والماركسية..⁸¹

والثاني لياسين الحافظ، "الهزيمة والأيدولوجيا المهزومة"، وفيه حديث عن الهزيمة الكبرى التي عانتها وتعانيها الأمة العربية منذ وعد بلفور وحتى اليوم، مع تقويم لبعض التجارب ومحاولات النهضة، كتجربة محمد علي وتجربة جمال عبد الناصر، ونقد "للأيدولوجيا المهزومة"، "الأيدولوجيا التقليدية" السائدة في المجتمع، و"أيدولوجية الأنتلجنسيا العربية"، فهي إما "أيدولوجيا سلفية" أو "أيدولوجيا اغترابية". هذا مع تمييزه في "الأيدولوجية التقليدية، أو التقليدية" بين ثلاثة تيارات: -تيار إسلامي تراثي سلفي يعيش بدلالة الماضي.. وتيار قومي "قوماني" يريد دخول العصر خلصة.. وتيار ماركسي "ماركساوي" دوغمائي مغترب بقي هامشيا..⁸²

إذا تجاوزنا إشكالية "الأيدولوجيا: الأزمة والحل"، وظاهرة التصنيف والتقسيم، وهما من لوازم البحث "الأيدولوجي" في الفكر العربي المعاصر. نجد مسألة "الأيدولوجيا والدين" تحتل موقعا مهما في هذا السياق. وقد تقدمت معنا نصوص تجعل من العقيدة والدين "أيدولوجية" وأخرى تجعل من "الأيدولوجيا" دينا، وثالثة تميز بينهما باعتبار

⁸¹ انظر عبد المالك، أنور. الأيدولوجيا والبعث القومي، مصر الحديثة. وانظر عرضا للكتاب وتعليقا عليه في كون هذه التقسيمات أيدولوجيا ولا ترجع إلى أساسها الاجتماعي، بل قد ترجع إلى أساس اجتماعي خارجي غير أساسها الحقيقي.. محمود أمين العالم: الوعي والوعي الزائف، ص 40 وما بعدها. وبخصوص علاقة "الأيدولوجيا" بعلم الاجتماع، انظر وهذان محمد رشاد: مشكلة الأيدولوجيا مدخل للتناقض في علم الاجتماع، مجلة الفكر العربي، ع 68، ص 13 (2) / 1992، ص 121 وما بعدها، حيث انتهى إلى تقرير تصورين أحدهما سلبي والآخر إيجابي انطلاقا من أعمال، ماركس ودوركايم وفيرر.. وغيرهم.

⁸² انظر الحافظ، ياسين. الهزيمة والأيدولوجيا المهزومة. وانظر أيضا عرضا للكتاب وتعليقا عليه في منير الخطيب: مفهوم الأيدولوجيا في الفكر العربي المعاصر، مجلة الوحدة (سابق)، ص 110 وما بعدها. تجدر هنا ملاحظة أنه يمكن إغفال بعض المعلومات المهمة في الكتابين، لكن الشاهد القوي المراد عندنا حاصل وواضح ولو بالتعريف المقتضب المذكور، أي ظاهرة التقسيم والتجزئة.

الجانب التريلفي في الدين، والصناعة البشرية في "الأيدولوجيا". ومرة أخرى مع حسن حنفي تحت عنوان "الأيدولوجيا والدين"⁸³، نجد "الدين أيدولوجية بطبيعته، وهل يستطيع أن يدرك ذلك إلا من تحرر من تصور الدين القديم كمجموعة من العقائد المغلقة أو العواطف الصوفية التي تشوبها الأساطير والمعتقدات الشعبية"⁸⁴. ويقول في حق محاوره "وقد استطاع رودنسون أن يتحرر من هذا التصور القديم، واستطاع أن يفهم الدين كأيدولوجية، وساعده على ذلك اعتناقه للماركسية"⁸⁵، ويقرر معه أنه "مهما كان الدين قادراً على تحريك الشعوب بالنسبة للإسلام وأوضاع المسلمين الحالية من تعرض لأخطار الاستعمار والرأسمالية والصهيونية العالمية، فلا بد أن يتحول إلى أيدولوجية كاملة، وهي وحدها القادرة على إعطاء الأسس النظرية للثورة"⁸⁶.

في مكان آخر يوضح حنفي الأسباب "الموجبة" للتخلي عن لفظ دين، وليس فقط اعتباره "أيدولوجية". بل استبدالها به أيضاً، وذلك لأن "لفظ "دين" .. لا يمكن أداء وظيفته في الإيصال نظراً للمعاني العديدة التي التصقت به طوال تاريخ استعماله، بل والتي تتعارض أحيانا مع المعنى الأصلي له..⁸⁷"، "فنظراً لأن لفظ "دين" له استعمالات كثيرة، ويفيد معان متناقضة (دين تاريخ ودين وحي، دين ما وراء الطبيعة ودين الطبيعة، دين سر ودين علن، دين كهنوت ودين عالم..) فإنه أصبح يشير إلى ما لا يقصد به"⁸⁸، ولهذا الاعتبار "لما كان لفظ "دين" قاصراً على أداء المعنى فإن لفظ "أيدولوجية" أقدر على التعبير عن الدين المعنى وهو الإسلام، وإيصال معناه..⁸⁹".

* انظر أيضاً: فرحات، محمد نور. عن التحولات الاجتماعية والأيدولوجيا الإسلامية، وتمييزه بين الدين أو الإسلام وبين "الأيدولوجيا" أو الإسلامية.. في: الإسلام السياسي (عمل جماعي)، تحرير محمود أمين العالم، النجاح الجديدة، ط 2 / 1991، ص 155-156.

⁸³ من كتابه: في فكرنا المعاصر، قضايا معاصرة 1 دار التنوير، ط 1 / 1981. وذلك في سياق مناقشته لمكسيم رودنسون في كتابه "الإسلام والرأسمالية".

⁸⁴ حنفي، حسن. في فكرنا المعاصر، ص 151.

⁸⁵ المرجع السابق.

⁸⁶ المرجع السابق، ص 153.

⁸⁷ حنفي، حسن. التراث والتجديد، ص 130.

⁸⁸ المرجع السابق، ص 131

⁸⁹ المرجع السابق، ص 131.

إن كلام الكاتب يحمل مغالطات كثيرة، فمهما سلمنا بما حمله لفظ "دين" من مضامين سلبية، فإنه يبقى أقدر على التعبير عن مضمونه الحقيقي كوحي وكمعطى إلهي متزل، من أي لفظ آخر بديل عنه. فهو يحيل دائماً على مظاهر ثابتة فيه هي بالنسبة لمعتقديها والمتدينين بها مرجع وملاذ حتى في الأديان الوضعية. أقصد مظاهر التقديس، والخضوع والالتزام بين دائن ومدين.. المثمرة لتمثلات عملية للأوامر والنواهي.. والشرائع جملة. تقديس الإله والوحي في الأديان السماوية، وتقديس المعبودات المادية أو الروحية في الأديان الوضعية. وعند علماء الأديان أن هذه الديانات الوضعية ما استحقت أن تكون ديانات وتحمل هذا الاسم إلا لحضور هذا الجانب فيها، ومشاركتها للأديان السماوية فيه. ولست أدري بأي معيار يكون لفظ "الأيدولوجية" أقدر على التعبير عن مضمون الإسلام وإيصال معناه من لفظ دين، وهو على ما رأينا من الغموض والاضطراب في أي مجال دخله أو موضوع اقتحمه. والكاتب على عكس ما يوهنا به، ينقلنا من لفظ أكثر انضباطاً وتعبراً عن مضمونه ومعانيه -مهما كانت فيه من احتمالات- للتأويل فلها ضوابطها العامة- إلى لفظ متسع لكل احتمال وتأويل، متحرر من كل قيد، متحلل من كل شرط.. والأخطر من ذلك تجريده (أي الدين) عن مصدره الإلهي كمعطى متزل حاكم ودائن، ونسبته إلى "منطق" بشري تحكمه الأهواء والرغبات. صحيح أن الوحي نزل ليتلبس به الناس ويتدينوا به ويحولوه إلى واقع.. لكن هذا كله لا يبرر المنطق العلماني ولا المادي الجدلي التاريخي في تحويله إلى صناعة بشرية واعتباره إراثاً يجوز فيه من الأخذ والرد ما يجوز في باقي الموروثات. إذ يبقى النموذج المتزل (الكتاب) هو الحاكم الذي تحتكم إليه التجارب البشرية التاريخية مهما اختلفت وتنوعت، تقيس نفسها عليه، وتحدد نسبة القرب منه أو البعد عنه. فلا اللغة تسعف الكاتب، ولا العقيدة ولا التاريخ.. في تبرير دعواه والانتصار لها.

قريباً من حسن حنفي، وبالذوافع نفسها تقريباً، يقيم د. أركون فوارق "أيدولوجية" بين "الظاهرة القرآنية" و"الظاهرة الإسلامية"، قياساً على التفريق بين "الظاهرة التوراتية" والإنجيلية وبين الظاهرة اليهودية والمسيحية⁹⁰. وفوارق بين "ثلاثة مستويات من المعاني ومن العمل للإسلام: إسلام أول ونطلق عليه اسم الدين القوي، إسلام ثان أو دين

⁹⁰ أركون، محمد. الفكر الإسلامي قراءة علمية، مركز الإنماء القومي، بيروت 1987، ص 72.

أشكال، إسلام ثالث أو دين فردي..⁹¹ وهو عندما يتحدث عن "الأيدولوجيا" يستعملها في الغالب للتعبير عن الاتجاهات أو العقائد الرسمية المهيمنة "الأيدولوجيات والسيادة العليا"⁹². إن الفكر الإسلامي عند الكاتب "لم يكتشف بعد أهمية هذا المفهوم وخصوبته، على العكس نجد أن هذا الفكر ينتج أيدولوجيات ظافرة تشوه حتى تاريخه الخاص وكل قيمه، دون أن تترك للمواطنين أي منفذ على البحث العلمي المعاصر (...)", فالأيدولوجيات في المجتمعات النامية هي في معظمها سلبية وغير مطابقة للواقع ومشاكله. فقد وجدت هذه البلدان العربية والإسلامية نفسها محيرة على تبني النموذج (أو الموديل) الغربي في التنظيم السياسي والاجتماعي والاقتصادي من أجل تلبية الحاجيات الضخمة للسكان المتزايدين بكثرة هائلة"⁹³. وأعمال الكاتب مندرجة فيما يزعم، في "مكافحة الاستخدامات الأيدولوجية المحتمدة اليوم في البلدان الإسلامية، [أي].. الاستخدام الأيدولوجي للإسلام كدين"⁹⁴. ولسنا معنيين بمناقشة هذا الادعاء، بقدر ما نحن معنيون بملاحظة الاضطراب في استخدام "الأيدولوجيا" بإضفاء طابع إيجابي غربي عليها، وفي عدم

⁹¹ أركون، محمد. لوي غاردييه: الإسلام والغد، ص 116.

⁹² أركون، محمد. الفكر الإسلامي قراءة علمية، ص 169-177-182.. وانظر له تاريخية الفكر العربي الإسلامي، مركز الإنماء القومي، بيروت، ط 1/ 1986. حيث يتحدث عن "ترسانة من المصطلحات ذات القابلية الكبرى للاستخدام الأيدولوجي" من قبيل (الميت "الأسطورة"، والمعتقدات، أو الاعتقاد، والشعائر، والمقدس (أو الحرام باللغة القديمة)، والرمز، والعلامة، والمخيال، والعقلاني، واللاعقلاني.. والديوي أو المذنب، والعلمانية والعلمنة، ونظام الإنتاج، والطبقة الاجتماعية..)، فكل مصطلح يحيلنا إلى مفاهيم ومعان متطاولة وضبابية وقابلة للاستغلال في اتجاه عمومي أو دقيق (...) تبعا للإطار الفكري السائد أو لضغط المحيط الأيدولوجي أو لأهداف الباحث..، ص 208 وما بعدها. وبخصوص "الأيدولوجيات والسيادة العليا" يقول: "لا شك أن ظاهرة الأيدولوجيات قد وجدت في الماضي العربي الإسلامي، ولكنها صقيت من الساحة أو نفدت تحت اسم الطوائف والهرطقات والضلال الديني.."، الفكر الإسلامي قراءة علمية، ص 178. وهو يقصد الفرق والاتجاهات الكلامية أو الفقهية أو السياسية المخالفة لمذهب أهل السنة والجماعة الحاكم والسائد، حيث كان ينبغي لهذه الفرق والاتجاهات على شذوذا أن تستمر وتسود بدورها. وانظر عملاً قريباً أو منطلقاً من هذا التصور، تصور إدانة أهل السنة باعتبارهم "خاتمة حركة الاجتهاد" وتواطئهم مع السلطة" ومحاصرتهم التيارات المنشقة.. إلخ، في بنسالم حميش: التشكلات الأيدولوجية في الإسلام، الاجتهادات والتاريخ، الهلال العربي للطباعة والنشر، ط 1/ 1988.

⁹³ أركون، محمد. الفكر الإسلامي قراءة علمية، ص 177-178.

⁹⁴ المرجع السابق، ص 229. وانظر مزيداً من أشكال وأوجه التعامل مع "الأيدولوجيا" بالاعتبارات السابقة التي تحدثنا عنها في: محمود أمين العالم: الوعي والوعي الزائف، ص 33 وما بعدها، تحت عنوان "دراسة في الأيدولوجيا العربية الحديثة ملاحظات منهجية".

استخدامها بإضفاء طابع سلمي محلي عليها، في وصلها بالدين وفي فصلها عنه حسب قناعات الباحثين وخلفياتهم.

وأخيراً لا أعتقد أن أي شكل من أشكال التعامل مع "الأيدولوجيا" يمكن أن يحمل وجهاً إيجابياً، أو يسهم بدور وحدوي في حركة الفكر العربي المعاصر، سواء تعلق الأمر ببعث "أيدولوجيا موضوعية" تقيم بتشخيص واقعها، أو "أيدولوجيا منهجية" تعين على البحث وتساعد على الفهم التاريخي الاجتماعي والسياسي لتراثها. وتسمية العلوم والمذاهب والمناهج بأسمائها، والاحتكام إلى منطقها ومبادئها، أولى وأسلم بكثير وأنفع لفكر الأمة وما تطمح إليه، بدل تعميمها في احتمالات لا متناهية لـ "الأيدولوجيا". وقد خلاص كثير من المهتمين والباحثين في المصطلح إلى ضرورة الاستغناء عنه، أو على الأقل الحذر والحيلة من استعماله. فالعروي، وهو من المكثرين في استعماله وتبنيه يخلص إلى ثلاث نتائج:

أنه "مفهوم مشكل، يجب استعماله بحذر، بل يتحتم الاستغناء عنه في أكثر الحالات، بعكس ما يقع عندنا حالياً"، وأنه "مفهوم غير بريء، يحمل في طياته اختيارات فكرية يجب الوعي بها لكي لا يتناقض صريح الكلام مع مدلوله الضمني"، وأنه "مفهوم قد يصلح أداة للتحليل السياسي والاجتماعي والتاريخي، لكن بعد عملية فرز وتجريد لكي يبقى كل باحث وفيما لمنهج المادة التي يبحث فيها"⁹⁵.

يخلص باحث آخر إلى أن "الأيدولوجية كمصطلح لم تعد مفيدة. أولاً: لأنها لا تعني شيئاً واحداً في كل سياق تستخدم فيه، وثانياً: لأن القارئ العادي لا يفهمها مباشرة.

يجعل د. الجابري "الطرح الأيدولوجي" إحدى الخطوات المنهجية المهمة عنده لقراءة التراث، ومعناه "الكشف عن الوظيفة الأيدولوجية الاجتماعية والسياسية التي أداها الفكر المعني". وبالرغم من أنه تحدث في خطوة منهجية سابقة عن "التحليل التاريخي" باعتباره ربطاً لفكر صاحب النص "بمجاله التاريخي بكل أبعاده الثقافية والأيدولوجية والسياسية والاجتماعية"، فإنه يذهب إلى أن هذا "التحليل التاريخي سيظل ناقصاً صورياً مجرداً ما لم يسعفه الطرح الأيدولوجي". نحن والتراث، قراءة معاصرة في تراثنا الفلسفي، المركز الثقافي العربي، التنوير، ط 4/ 1985، ص 24.

⁹⁵ العروي، عبد الله. مفهوم الأيدولوجيا، ص 127.

[ثم] لأنه من الممكن ببساطة شديدة أن نستبدل بها مصطلحات أيسر وأفضل منها في إبلاغ المعنى المقصود...⁹⁶.

إن توجه الخطاب العربي والإسلامي المعاصر إلى الأمة وقضاياها الكبرى أمام تحديات التجزئة والنفوذ الغربي والصهيوني.. يقتضي من بين ما يقتضي التحرر من فكر "الأيديولوجيا" وتبعاته، وهو شرط أساس لنجاح هذا التوجه. ثم إذا كانت مختلف التيارات الفكرية العربية من قومية وعلمانية ويسارية وليبرالية وغيرها.. حصيلة الافتتان بشكل أو بآخر بالأيديولوجيا الغربية، فإن ما نجم عنها من تجزئة بدل الوحدة؛ ومن تأخر بدل التقدم، أو تقادم بدل التحديث.. فضلاً عن الهزائم والإحباطات.. لأمر يستدعي ويؤكد ضرورة الرجوع إلى أصل جامع موحد: الأمة، وبمقومها الديني الخاتم: الإسلام.

خلاصة البحث

لا شك أن الباحث في موضوع "الأيديولوجيا" يجد من الغموض والتعقيد ما يجد، ومن الاضطراب والتناقض كذلك، لدى الباحث والمفكر الواحد، وفي الاتجاه والتيار الفكري الواحد، فكيف به أمام اتجاهات وتيارات فكرية مختلفة؟

إن جزءاً من تبرير هذا الواقع كامن في المصطلح ذاته، في حملاته المطاطة والرحالة من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، والتي -كما قلنا- بإمكانها أن تمتد من "خيبة الهزيمة" إلى "أمل النصر"، ومن "التزييف والتضليل" إلى "الاعتقاد والعلم والمعرفة". المصطلح الذي بإمكانه أن يؤثر كل شيء ويعيد توجيهه وبناءه دون إمكانية إخضاعه لنقد علمي ومساءلة دقيقة.

وقد تساءلنا، ونعيد التساؤل، "لماذا لا تسمى المسميات بأسمائها وتحدد الأشياء بأعيانها؟"، فيكون العلم علماً، محكوماً بقواعده ومناهجه، وكذلك الفكر والمعرفة والثقافة والوعي والعقائد... أي إعادة تحرير هذه المفاهيم من "الأيديولوجيا" والاستعمال "الأيديولوجي"؟

⁹⁶ قنصوة، صلاح. المثقف المصري إزاء المشكلة الزائفة للهوية، (مجلة الاجتهاد، سابق)، ص 108.

للأسف إن الذي شاع في ثقافتنا العربية والإسلامية هو المعاني القدحية، السلبية، الزائفة.. "للأيدولوجيا" بحكم الصدى الذي يحدثه التقليد والاتباع لكل ما هو أجنبي لدى نخب فكرية وسياسية. أمام غياب وعي كامل بمستويات النقل والاستعارة وشروطها العلمية الموضوعية والمنهجية، وأمام غياب قواعد علمية لدمج واستيعاب المصطلحات والمفاهيم المنقولة وجعلها جزءاً من لحمة النسيج الثقافي المحلي، تضطّلع فيه بأدوار بنائية لا تخريبية.

ويكفي من خلال هذا الرصد -أو أي رصد مماثل- المتبع لأضرار استعمال المفاهيم المنقولة، التي عبّر عنها علماءنا الأوائل بـ"الدخيلة"، من غير "تكيف" أو "تقريب" أو "تبيئة" كما يذهب بعض الباحثين، أن يحكم عليها بمغادرة هذا الفكر وبمنع استعمالها وتداولها واستبدال غيرها بها، مما هو أصيل وذاتي منسجم مع روح ومقومات الأمة وخصوصياتها. هذا في عموم المفاهيم والمصطلحات المنقولة، أما إذا تعلق الأمر بمصطلح أو مفهوم عصي على الدمج والتكيف أصلاً، لا في أصوله اللغوية ولا في دلالاته الفكرية كـ"الأيدولوجيا"، ومثله "العلمانية"، فإن ذلك سيكون من باب أولى، في انتظار أن تعود إلى هذه الأمة قدراتها الإبداعية لتقوم بتوليد المفاهيم اعتماداً على رؤيتها الذاتية وخبرتها العملية.